ظاهرة الطرق الصوفية في الجزائر خلال القرن العشرين، دراسة في الانتشار والصراع مع الحركة الإصلاحية.

د .حميدي أبوبكر الصديق

قسم التاريخ . جامعة محمد بوضياف المسيلة

مقدمة:

إن ظاهرة الطرق الصوفية في الجزائر كان لها حضورا قويا منذ العهد ، فبعضها عرف توافقا مع السلطة القائمة ، ومنها التي كانت في صراع معها ، العثماني، وأثناء الاحتلال عرفت تجاذبات كبيرة بين دورها الديني التعليمي ، ومحاولة الاستعمار لاحتوائها وتحويلها عن دورها الحقيقي ، ومن جهة أخرى صعوبة التكيف مع الحركة الإصلاحية الجديدة .

وضمن موقعها الجديد كان محور هذا البحث الذي يدور حول رصد ظاهرة الطرق الصوفية في الجزائر في خضم الحركة التاريخية التي شهدتها الجزائر في النصف الأول من القرن العشرين وعلاقتها بأهم توجه ديني والمتمثل في الحركة الإصلاحية وبالتالي الوقوف على إشكالية التماثل أو التنافس والصراع القائم بينهما ولماذا ذلك ؟

وهل كانت هذه العلاقة تحدد المبادئ أم الزعامات أم المصالح، أم هناك استغلال استعماري لهذه الوضعية وتسخيرها لما يخدمه ؟ ثم لماذا هذا التحول في طبيعية الطرق الصوفية بعدما رسم بعضها المشهد الجهادي في مقاومات القرن 19 بالجزائر ؟

وما هي الأدوار الإيجابية التي بقيت تؤديها في الميدان؟ وفي الأخير نخلص إلى مظاهر الصراع الحاصل بينها وبين الحركة الإصلاحية في الجزائر مع تقييم هذا الصراع في ميزان الظرف التاريخي وعالم المبادئ والقيم ،وقد حاولنا أن نستخدم في هذه البحث المتواضع كتابات الأطراف المعنية وبالتالي نترك الكلمة للنص للوقوف على حيثيات الصراع ولكن في سياقه التاريخي وبالتالي جعل الرؤى والطروحات الدينية التي ميزت المرحلة تضع نفسها في الميزان التاريخي. كما وظفنا بعض الدراسات المعاصرة لهذه الظاهرة لتوضيح الخريطة الطرقية في الجزائر وقوة أفكارها وضعفها وبالمقابل لماذا اهتمت الحركة الإصلاحية بالطرق الصوفية؟

هل لكونها منافس ديني أم عائق في الطريق أم أن الأمر يتعلق بالمبدأ؟

الزوايا والطرق الصوفية في الجزائر

لعبت الزوايا دورا مهما في المغرب العربي كله والجزائر خصوصا، ويتجسد هذا في العصر الحديث كله قبل الأتراك وفي عهدهم. وفي الحقبة الاستعمارية فصارت الزوايا مؤسسات دينية واجتماعية لكل منها انتهاج طريقة معينة، وإذا كان معظمها له أصول شرقية فإن بعضها صار بالجزائر أصلا، وغلب صيته على مركزها الأم (القادرية)

وقد كان التعاطي مع الطرق الصوفية في العهد العثماني على أنها جهات فاعلة وبالتالي التعامل معها شكل توافق دون تصادم أو على الأقل حفظ التوازنات معها ويمكن القول بلغة معاصرة أن الطرق الصوفية كانت تمثل الحزب

السياسي الذي له جمهوره (مريديه) وفروعه وإيراداته وكلمته اتجاه الأحداث الحاصلة ولذلك كانت السلطة العثمانية أو الفرنسية تأخذ ذلك بشكل جدي وله اعتبار .

وبلغة سياسية أخرى يمكن القول أن ظاهرة الطرقية قد قللت من أثر العرش والقبيلة، إذ يمكن أن تجمع عدة قبائل على أذكار أو طريقة واحدة [1]) وهو مهم بالنسبة للخريطة السياسية والعلاقات القائمة بين القبائل وتجنيدها ضد المحتل أو إقامة السلم بين أعراش معينة أو ظاهرة التكتلات أو العلاقة مع السلطة الرسمية.

التوزيع الطرقي بالجزائر

فقبل ظهور الحركة الإصلاحية كان المرابطون (الطرقيون) هم الذين يسيطرون على الحياة الروحية والفكرية وحتى السياسية في المدن والأرياف بالجزائر وظل الأمر كذلك حتى مطلع الحرب العالمية الأولى حيث ظهر الإصلاح الإسلامي والسياسي وصارت هذه التيارات الجديدة تأخذ من رصيد الطرق الصوفية بل وتحاربها أحيانا .

1 – محمد قنانش ((الإيديولوجية السياسية للحركة الوطنية الجزائرية أو الحركة الوطنية بين عقيدة الإصلاح وروح الثورة))، مجلة التاريخ ، المركز الوطني للدراسات التاريخية ، النصف الأول من سنة 1986.

ويمكن أن نصنف الخريطة الطرقية للجزائر من حيث غلبة التوزيع والتواجد الى عدة مناطق منها :

1- منطقة النفوذ العلوية وتتمركز في الغرب الجزائري كمستغانم وضواحها حيث يتواجد اغلب مريديها ومقدميها .

2-منطقة النفوذ الرحمانية في منطقة القبائل من أبناء زواوة في مختلف جهاتها (القبائل الكبرى والصغرى، تابلاط ، وسفوح جرجرة ،وتمتد حتى منطقة الحضنة، وكذلك بشكل أقل في قسنطينة ، بسكرة ، سطيف، سوق اهراق).

3- منطقة نفوذ الطيبية والدرقاوية (ذات أصول مغربية) وتركزت في منطقة وهران ، تيارات ، مغنية عين الصفراء .

4- منطقة نفوذ التجانية وهي ذات حيث واسه داخل الجزائر وخارجها. وتنازعها جهات متعددة للهيمنة عليها [1] وفي الجزائر تتركز المنطقة الصحراوية كالواد والأغواط (عين ماضين وتوفرت (تماسين) [2].وبالتالي فإن كل الجزائر العامرة بالسكان كانت تنتابها ظاهرة التواجد والهيمنة الطرقية . طبعا ليس كونها ظاهرة سياسية فقط ولكن تمثل حركة ولاء وتدين ونمط عبادة وأذكار وأسلوب ارتباط وتآخي.

1 ـ مثل أسرة ابراهيم نياسا حاليا في نيجيريا.

2 – Ali Merad, le reformist musulman en Algérie de 1925-1940p 59.

إن هذا الانتشار هو الذي جعلها القوة الأولى في الجزائر والوقود الحقيقي للثورات في وجه فرنسا طيلة القرن 19 ولهذا فإن الاستعمار وقف على هذه الحقيقة الدينية والديمغرافية وارتباطها بالجانب السياسي والثقافي ولهذا اهتم قادة الاستعمار بالظاهرة [1] دراسة وتحليلا واحتواء أو توظيفا ،ومن هؤلاء (دي نوفو شارل ، بروسلار،هنري دي فيرييه ، لويس رين ، هانوتو، لوترنو كبولاني)، وذلك لتحليها والوقوف على علاقاتها مع خارج الجزائر وخاصة مع مستعمراتها(غرب إفريقيا، وإفريقيا الشمالية والوسطى) وهذا من أجل وضع حد لمفعول هذه للطرق الصوفية من أدوار إيجابية كالمحافظة على الهوية الإسلامية والحياة الروحية واللغة العربية وضمان التعليم بالكتاتيب وارتباط المجتمع في علاقاته ونزاعاته وقضائه بشيوخ الطرق أكثر من السلطة الفرنسية وهذا ما كان كامنا وراء التعبئة التي مست ثورات ومقاومات القرن 19.

ويمكن القول أن دورها أو نصيبها في مواجهة المستعمر كان في هذه المرحلة مع الاحتفاظ والاستمرار في أداء الدور التعليمي إلا أن علاقتها مع الاستعمار تغيرت . فهل هذا يعود إلى طبيعة الظروف أم إلى الاستعمار على الترويض والضغط وتفتيت القوى المناهضة له ؟

التحول الطرقي في الجزائر:

1 -Bulletin Mensuel de presse Indigen d'Algérie Mais d'octobre 1938 p9.

حقيقة أن اهتمام الدراسات الاستعمارية واضحة في هذا المجال وعرفت مواطن القوة في المجتمع، ولهذا كان حصارها لهذا الطرق ولمقراتها ومريديها والثائرين المنتمين إليها، ومصادرة أملاكهم وغلق مدارسهم إضافة إلى سياسة التجهيل والعمل على كسب بعض زعماء الطرق وسلوك سياسية الترغيب والترهيب ، وهذا ما جعل هذه الطرق تأنس إلى عدم الصدام ، وانزوت إلى النشاط الروحي وعدم الخوض في شؤون السياسة وهو نوع من الحتمية التاريخية بعد انكسار شوكة المقاومة والحصار المطبق على الشعب الجزائري كله، وكان للمجتمع نفس السلوك بأن استأنس السكان بشيوخ الطرق الصوفية كملجأ لتسلية النفس عن الضغط الصادر من السلطة الاستعمارية في زمن آل فيه المجتمع إلى حالة يرثى لها من الجهل والأمية تجاه حتى قضاياه العقدية الدينية فضلا عن العلوم الأخرى.

وفي هذا لاتجاه يقول الدكتور سعد الله بأن الأخذ بمبدأ الدورة التاريخية التي تجلت في سيرورة الطرق الصوفية والتي أظهرت الطرق الصوفية ثم جمعية العلماء المسلمين ثم دورة لصالح ثورة التحرير 1954 ثم دورة الحركة الإسلامية المعاصرة وأضاف أن هذه الرؤية أقرها أوغسطين بارك أثناء دراسة للحركات الدينية في الجزائر وهذا له أصل في نظرية ابن خلدون حول دورة التاريخ [1]

صراع الطرق الصوفية مع الحركة الإصلاحية:

1 ـ ابو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي، ج4 ،ط1، دار الغرب الإسلامي 1998، ص 341.

لاشك أن ميدان العمل كان مشتركا بين الحركة الإصلاحية والطرق الصوفية وطبيعي أن ينشأ الخلاف ولكن الأمر تعدى إلى ذروة الصراع والتأثير فهل هذا يعود لأمر مبدئي ديني أم خلافات شخصية سببها مساحات ومجالات التحرك والعمل والكسب للأتباع؟

إن تحديد طبيعة هذا الصراع يقتضي منا الجرأة في إظهار الحقيقية التاريخية بأن مرد ها يعود إلى عدة أمور:

أولا: أن الانتقاد للطرقية كان انطلاقا من اعتبار الحركة الإصلاحية للطرقية أنها تهتم بشؤون الأشخاص وممارسة الدروشة والغموض والضلال وحتى وصفت بالإلحاد على حد قول ابن باديس [1] وإن كان النقد موجها أكثر للتيجانية فإن ذلك شمل كل من العيساوية والعمارية [2] ، وخاصة فيما يتعلق بالبدع والضلالات التي لم ينص عليها الشارع واعتبرت ذلك دجلا وتنويما للمجتمع وإلغاء للتفكير السليم والعقيدة الصحيحة وصرح ابن باديس نعم إن الحملة على الطرقية وبيان ضلالتها وفضح التيجانية وبيان إلحادها كل ذلك محمول عل كاهلي ومربوط به رأسي وإن كنت فيه كواحد من إخواني[3].

1 ـ ابو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي، ج4 ص339.

2 – نفسه .

3 – نفسه، ص 340.

وهذا التمادي في الانتقاد العقائدي نظرا إليه الإبراهيمي على أنه تحرير الأمة روحانيا أولا ثم ماديا ثانيا، ويقصد بالأول الطرقية وبالثاني حكومة فرنسا[1]

ثانيا: الخلاف حول طريقة التعبد فممارسة الصوفية لشعائر العبادة والإكثار منها والأذكار وبعض الأوراد الخاصة وأحيانا الغامضة يعد ذلك من قبيل السمو بالروح وغرس فضائل النفس حتى تصفوا الروح وترق وتتأهل لمشارفة الملأ الأعلى وتكون بمقربة أفق النبوة وتتذوق العبادة الروحية[2] ، في حين نظر الإصلاحيون إلى أن الزهد في الحياة المادية وكثرة التعبد والسمو بالروح من خلال الذكر شيء محمود وهو هدف الإسلام ولكن على منهاج النبوة والسنة الصحيحة دون غموض أو تقديس لأن الطرقية في نظرهم صارت "أقولا تدافع يقولها من لا يفقه لها معنى، فضلا عن أن تصطبغ بها نفسه. والحق في هذه النزعة أنها صبغة روحية مرفوعة في ميزان الشرع وأحكامه فإن الدين قد تكامل بختام الوحي"[3]

ثالثا: إن طبيعة الصراع كان يكمن في التموقع من الاستعمار وبطبيعة الحال أن الدور الريادي للطرق الصوفية في القرن 19 في وجه الاستعمار جعلها تنظر لنفسها أنها المخولة لرسم واقع الجزائر في علاقتها مع الشعب وأنها مازالت منوطة بذلك

1- يوسف القرضاوي ،مقومات الفكر الإصلاحي عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الوعي ط1، 1928 هـ /2007م، ص 33.

2 - يوسف القرضاوي، مرجع سابق .

3- نفسه ،ص 34.

إلا أن الظروف حالت دونها في ظل الاستعمار وفي نفس المنهج بفعل القهر الاستعماري والتشريد والتضييق وبالتالي فإننا نحس وكأنها عادت إلى تحت الأرض بسلوك السرية في الارتباط والابتعاد عن السياسة والثورة والاهتمام بالروحانيات والتعليم إلا أن الاستعمار استغل ذلك بل واجه الأمر بعناية وسخر كل إمكانية الفكرية والمادية لاحتواء الظاهرة الطرقية، ولذلك قال أحد قادة جيوشها إن كسب شيخ طريقة صوفية أنفع لنا من تجهيز جيش كامل وقد يكونون ملايين ولو اعتمدنا في إخضاعهم على الأموال والجيوش لما أفادنا ما تفيده تلك الكلمة الواحدة من الشيخ..: [1] .

صار انتقاد الطرقية من قبل الإصلاحيين أحيانا أكثر من الاستعمار وبشراسة كبيرة، واعتبروا أن واقع المجتمع والأمة وسيطرة الطرقية على عقول الناس وتدينها لصالح الاستعمار أمرا أخطر[2] وتنويما للمجتمع وولاء للاستعمار[3].

رابعا: كان اهتمام الطرق الصوفية في توثيق الارتباط بين مريديها وبين مختلف الزوايا التي لها نفس الطريقة وهذا الارتباط يتجاوز حدود الجزائر فنجد زاويتي تماسين وقمار استقدمت علماء من تونس كالشيخ اللقاني السائحي [4] ، وكذلك رد ابن سكريج أحمد أحد شيوخ التجانية في المغرب الأقصى على ابن باديس

1 – نفسه ص 36.

2 ـ انظر: أبو القاسم سعد الله ، مرجع سابق ،ج،4 ص 339

3 ـ نفسه، ص 340.

4 ـ أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج3، ص 227.

([1]). كما حضر أحد الطرقيين :عبد الحي الكتاني من المغرب الأقصى في مؤتمر جامعة الزوايا في أفريل 1938[2] ، وبالمقابل فإن حركة الاصلاح كانت تعمل على الاهتمام بقضية الأمة الجزائرية وبقضايا العالم العربي والإسلامي بغض النظر عن الانتماء الروحي أ المذهبي أو منهج التدين وهذا حتم عليها التعامل مع رجال الفكر والإصلاح في الإسلامي مثل أرسلان ومحمد عبده ورشيد رضا وعلماء الزيتونة والإخوان المسلمون ومحب الدين الخطيب، وكذلك زعماء الحركات السياسية في العالم الإسلامي .وكانت حركة الإصلاح تهدف إلى شبكة علاقات مع هذه الشخصيات لتسخير أقلامها ومواقفها لخدمة التآزر ومواجهة الاستعمار.

خامسا: كان الخلاف قائما من خلال المواقف من بعض القضايا مثل قضية قبول التوظيف والمناصب المعطاة من السلطة الاستعمارية وكذلك قضية الموقف من الحرب العالمية الثانية، ففي1938 سعت فرنسا إلى طلب تأييد كل الهيئات والطرق الصوفية في الحرب ضد ألمانيا، بل ذهبت إلى التنسيق بين مختلف الزوايا على مستوى المغرب العربي وعقدت مؤتمرا في أفريل 1939 من أجل كسب

1ـ نفسه ص 339..

2- نفسه ،ج4، ص 335

ودها[1] في حين أن الحركة الإصلاحية كان موقفها الرافض واضحا في هذا الأمر وإنما تأرجح بين الإعلان عنه بالمكتوب أو السكوت على الرد عليه.

سادسا: كان الخلاف قائما بين الطرفين حول كيفية التعليم الديني فقد كان الانتقاد كبيرا لمنهج الزوايا حول العملية التعليمية فكانت انتقادات كثيرة من رجال الإصلاح وعلى رأسهم الشيخ باعزيز بن عمر الذي طالب بإصلاح طرق التعليم وخاصة بمنطقة زواوة وأوكل الأمر إلى أرباب الزوايا في ضرورة إزالة التحفيظ والتلقين التقليدي والاطلاع على مناهج التعليم في معهد قسنطينة والزيتونة، لأن واقع التعليم الحالي في الزوايا لا يؤهل الطالب للبحث والاستنتاج والتصرف فيما يعلم بل تجده يتلقى كل شيء بالتسليم أعنى مالا ينبغي التسليم فيه لمصادمته للعلم الصحيح، فكانت الدعوة إلى إصلاح طرق التعليم وإعمال العقل [2] في فهم النصوص دون الاكتفاء بالحفظ والترديد.

مجالات العمل المشتركة:

وإذا كانت مظاهر الاختلاف والصراع أحيانا بين الحركة الإصلاحية والحركة الصوفية فإن ذلك لم ينف وجود مجالات عمل مشتركة بينهما، أو وجود مساحات عمل مشتركة. أعني دون تنسيق أو تفاهم الأدوار بشكل مسبق ومن ذلك:

1 – ابو القاسم سعد الله ،مرجع سابق، ج4، ص 336.

2 ـ الشيخ باعزيز عمر، ((الزوايا بالزواوة))، الشهاب ، ج2، المجلد 9، شوال 1351 هـ، ص 75

ـ أن خريجي الحركة الإصلاحية في مطلع القرن معظمهم درس في كتاتيب وزوايا واقعة في دوائر نفوذ الطرق الصوفية بشكل أو بآخر.

– إن تأسيس الجمعية في البداية كان مفتوحا للجميع بما في ذلك رجال الطرقية – ممارسة التعليم العربي والعلوم الشرعية في كل من المدارس الإصلاحية وزوايا الطرق الصوفية رغم أنه لكل منهما منهج ورجال قائمون عليه إلا أن الهدف المحقق من العملية واحد وهو نشر التعليم ومحاربة الأمية وحفظ تراث الأمة ، وبقدر ما كان لهذه العملية من تنافس في الميدان فإنه كان لها أثرا واسعا في تعليم الناشئة ،وإيجاد بديل عن التعليم الفرنسي .

ولهذا تشير بعض المصادر إلى أن رجال الزوايا حاولوا تقليد الجمعية في إنشاء قانون أساسي على نمطها[1].

ويبدو أن مساحة العمل والمصالح المادية وهو الخلاف كانت أكبر من أن تتوحد أو على الأقل تسير في توجه متكامل، وخاصة في الشق السياسي رغم وجود بعض المحاولات من هذا القبيل كما هو الحال في محاولة التنسيق في تأسيس الهيئة العليا لإعانة فلسطين سنة 1948 وان باءت بالفشل ، أو مثل بعض المبادرات والمواقف ومن ذلك ما أجاب به ابن باديس حول موقف الجمعية من الطرق والزوايا حيث قال ((في هذه الظروف التي تؤكد اتحاد طبقات الأمة

1 – عبد الحميد بن باديس، ((الزوايا وغاياتها)) البصائر ،عدد 148، ذي القعدة 1357 هـ 13 جانفي 1939م، ص 1.

بأجمعها للعمل لفائدة الأمة، ولكن الجمعية لا يمكنها بحال أن تتحد مع الزوايا التي تستعمل آلة ضد الأمة، وأكبر دليل على رغبتنا في الاتحاد أني في الاجتماع الذي عقدة المؤتمر الإسلامي بمستغانم في الصائفة الماضية كان يجلس الى جانبي أحد مشايخ الطرق وعند انتهائي من الخطابة مددت يدي مصافحا الشيخ أمام الجمهور قائلا ها أنا أصافح هذا الشيخ رغم أني مصلح وهو طرقي كعنوان على التعاون في خدمة القضية العامة)) [1].

الخاتمة

في الختام لابد من الإقرار أنه يجب الاعتراف بما أدته الزوايا من دور في كافة المغرب العربي عامة والجزائر خاصة في الفترة المعاصرة فصارت تشكل مؤسسات اجتماعية ودينية وسياسية نظرا لتعدد الأدوار التي قامت بها بل كانت تمثل ما يشبه المؤسسات الحزبية
والاجتماعية الحالية[2].

ومن الطبيعي أن ظاهرة الصراع بين الحركة القديمة والجديدة شيء وارد خاصة أنهما بتحركات في نفس الجمهور والجغرافيا حيث كانت لا توجد منطقة في الجزائر إلا وفيها حضور مرابطي وعلى رأسها مقدم والذي يعتبر المرشد الزمني

1- محمد الصالح الجابري ، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس، الدار العربية للكتاب، 1983.ص 88.

2 - الإيديولوجية السياسية للحركة الوطنية الجزائرية، مقال سابق، ص 143.

والروحي [1] ، وبالمقابل فإن حركة الإصلاح تحمل فكرة الامتداد على كامل ربوع الجزائر وبالتالي فإن نقاط التماس كثيرة .

كما أن الاستعمار استغل ذلك وأجج الصراع بتشجيع الطرقية وخاصة أن الأمر يتعلق ببعض الوظائف والهيمنة على المساجد بل انتقل الصراع إلى فروع الطرقية ذاتها حتى صار التيجاني لا يصلي وراء العزوري والقادري يقول أن الفرقتين في ظلال [2] .

1 – على مراد، مرجع سابق، ص 60.

2 – أنظر: صدى الصحراء ، العدد 10، السنة الأولى، 28 رجب 1344 هـ، 8 فيفري 1926 ، ص 2.